الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ

محمد سيد حاج

رحمه الله

خطبة جمعة

رهبان الليل

للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله

نص مفرَّغ من التسجيل وحُرِّر للقراءة: صُحِّحت فيه الهمزات والترقيم والآيات، وحُذفت مواضع لم يتبيّن فيها الكلام. المرجع هو التسجيل الصوتي.

الحمد لله الذي خلق الكائنات وتفضل علينا بجوده والرحمات، هو الذي أرسل رسوله بالهدى والبينات، أنزل التوراة والإنجيل والزبور، علام الخفيات قاضي الحاجات، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات، مجيب الدعوات فالق الإصباح ومبدد الظلمات، والنظر إلى وجهه الكريم نهاية الغايات، يسمع دبيب النمل وخافي الهمسات، لا تختلط عليه اللغات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا دعاء الداعين والاستغفار المستغفرين ولا توبة التائبين. أحمده سبحانه حمد الشاكرين الذاكرين، حمدًا يليق بجلاله وبعظيم سلطانه، لا أحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه. والصلاة والسلام على عبد الله المصطفى، ورسول الله المجتبى، ونبي الله المرتضى، وعلى آله وأصحابه ومن به مهتدى.

عباد الله، مقامات الإيمان متنوعة ومنازل الطاعات متعددة، وفي ذلك خير للناس، فمن ضعف عن القيام ذكر، ومن ضعف عن الذكر وصل، واصل الناس بالخير، وواصل بالرحمة، وفي ذلك رحمة بعباد الله تعالى، وفي تنويع المواسم واختلافها للناس رحمة، فالجمعة إلى الجمعة تطهير للقلوب، ورمضان إلى رمضان محطة للتغيير، وكذلك الصلوات الخمس يخرج منها المؤمن ويعود إلى أختها وهو أشد شوقًا. ومنعت الصلاة النافلة بعد صلاة العصر لتشتاق النفوس للصلاة ولتعرف قيمتها، ولكنها منعت من النافلة صلاة ولم تمنع من النافلة أذكارًا، وفي هذا دلالة على كمال الشرع الحنيف الذي أراد للعباد أن يكونوا في خدمة دائمة وعبادة مستمرة مع مولاهم سبحانه وتعالى.

وإن هذه المقامات المختلفة والعبادات الكثيرة والمواسم المتداخلة في حياتنا الغرض منها تزكية النفوس، ولذلك أجل المقامات وأزكى العبادات وأفضلها على الإطلاق هي العبادة التي فيها لذة مناجاة وحب وخدمة لله وتعظيم وإجلال لله ومعرفة ويقين بوعده وإيمان به سبحانه وتعالى. وإنني أود أن أتحدث عن عبادة من العبادات الجليلة السامية لا يقوى عليها إلا أصحاب العزائم والإرادات المتينة، إنها عبادة الليل، أن يضوع السحر بالأنين، وأن ينادى الله في جوف الليل بالحنين. وكفانا فيها قوله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل». إنها من العبوديات الدالة على الخدمة وعلى الإخلاص وعلى الصدق، إن عبادة الليل هي عبادة الأسرار، وعبادة المحبين، وعبادة المستأنسين بالله عز وجل، أن يقوم الإنسان وقد خرج من المألوفات، من الفراش الدفين، فيطيل القيام والوقوف بين يدي الله عز وجل، إنها عبادة جليلة ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، ليلًا طويلًا ليس مجرد ساعة ليقال عنها التهجد، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يقوم الليل طويلًا حتى تتفطر قدماه.

أما إذا دخلت العشر الأواخر فكان يجتهد ما لا يجتهد في غيره، أما في العشر الأواخر فإنه يجتهد ما لا يجتهد في غيره. وإني عجبت لهذا الحديث ولهذا الوصف من عائشة رضي الله عنها، فعلمت أنه اجتهاد ما بعده اجتهاد، وأنها عبادة ما بعدها عبادة ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، هذا والله لا يقدر عليه كل الناس. الليل يحتاج فعلًا إلى قلوب ويحتاج فعلًا إلى صفات، أجملها الله عز وجل في قوله ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾. وفعلًا قيام الليل يحتاج إلى صبر ويحتاج إلى جلد ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، هي أشد وطئًا على النفوس وأقوم قيلًا، أفضل طريقًا وأحسن سبيلًا للوصول إلى الله عز وجل وإلى مرضاته. يعبد العابدون ويقوم القائمون ويذكر الذاكرون وينفق المنفقون، والغرض من ذلك التقرب إلى الله عز وجل والشرف بخدمته سبحانه، أن تكون خادمًا لله بأحكامك وبجوارحك وأن تطيل القيام.

هذا والله ليس بأمر صعب، بعض الناس يقف ساعات طويلة فيما لا ينفع ولا يجدي، أما أن تصف الأقدام وأن تتجه القلوب وأن تلهج الألسنة وأن تذرف الدموع وأنت بين يدي الله عز وجل تناجيه وتسائله، هذا مقام عظيم ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾. إن هؤلاء الذين لا يقومون ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، استثقلوا قيام الليل ونسوا أن هناك يومًا ثقيلًا سيقفونه في عرصات القيامة. وقال

سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾، يقومون الليل يصلون في جوف الليل، يتملقون الله ويسألون مولاهم ويرجونه، يتكلمون إليه بالقرآن. إنها عبادة سر، إنها عبادة إخلاص، إنها عبادة جهد واجتهاد وتعب ونصب، قاموا في جوف الليل، كلماتهم في الليل تقيم عرسًا واحتفالًا من صدق ما يقولون.

كانت عفيرة العابدة تقوم الليل تناجي ربها وتبكي، تقول: إلهي غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك فارحمني. الملوك أغلقت الأبواب ولو كانوا من الكرماء، ولو كانوا من المنفقين، في ساعة لا يقبلك فيها أحد من البشر، لا يقبلك إلا ربك سبحانه وتعالى.

أيها الأحبة، هل تظنون أن التهجد الذي نصليه في العشر الأواخر هو قيام الليل الذي كان يقومه أسلافنا؟ إن ضعف أبداننا ووهن عزائمنا وضعف إراداتنا هو الذي صور لنا أنا نقوم الليل. القرآن يقول ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، بينهم وبين الفرش مشكلة، بينهم وبين الفرش جفاء، هذا تعبير قرآني عجيب، تتجافى جنوبهم عن المضاجع، أي لا يعرفون النوم ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، عجيب والله، تتجافى، بينهم وبين الفراش جفاء، إلى درجة أنهم لا يحبون الفرش، هذا والله شيء عجيب ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من ناره وطمعًا في جنته، وهذه عبادة الأنبياء والمرسلين ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

والعجيب أن الرب قرن بين الإنفاق في سبيل الله وبين قيام الليل، وكلاهما إنفاق، فقيام الليل إنفاق راحة، إنفاق خروج من المألوفات وخروج عن العوائد، والإنفاق فيه شجاعة، لا يقوم الليل إلا شجاع. لا يمكن من قام لله في جوف الليل وذاق لذة العبادة وأدرك حلاوة المناجاة لله عز وجل أن يظن بماله، إنه بعد ذلك لا يرى للمال قيمة، ينفق في سبيل الله وفي أوجه الخير، قال ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. يا سبحان الله اللطيفة: أخفوا العمل فأخفى الله الجزاء، وأفضل قيام الليل أن تقوم لوحدك لا يراك أحد ولا يسمع أحد، إنها عبادة سر، ولذلك أخفوا العمل عن الناس فأخفى الله الجزاء عن الناس وأعده بما يعرفه ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

أيها الأحبة، تمر علينا الآيات ولا تؤثر فينا، ونقف عند كلام رب البريات ولا يهزنا، والسبب أننا ضعفت قلوبنا وتعلقت بالدنيا أكثر مما يجب. عثمان بن عفان رضي الله عنه أتى مكة معتمرًا، وبعد صلاة العشاء أراد أن يصلي، دخل في القرآن، كبر، وبدأ يقرأ ويقرأ ويقرأ فما ركع، حتى ختم القرآن مع أذان الفجر فكانت له وترًا، ختم القرآن في ركعة، والله هذا ليس ببعيد، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قام الليل بعشر

آيات لم يك من الغافلين، ومن قام الليل بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام الليل بألف آية كان من المقنطرين»، الذين يأخذون الحسنات بالقناطير، فلا تعجب أن يقوم عثمان عند الحجر الأسود الليلة، هو ما أراد أن يوتر، أراد أن يقرأ ولكن استرسل، استرسل، استرسل، كل مرة يقول أركع أركع حتى ختم القرآن في ركعة ولم يصل بعدها لأن الفجر قد أذن.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. وإني لأتساءل: لماذا جمدت عيوننا؟ ولماذا نضبت دموعنا؟ ما الذي أصابنا؟ أهي وحشة الدنيا؟ أهو إيقاع الحياة السريع الذي أخذنا عن ربنا وعن مناجاة مولانا؟ ما الذي أصابنا يا ترى؟ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾. ما الذي أخذ بقلوبنا؟ فأصابتنا القسوة وأصابنا الجمود، ما الذي اعترانا من الغفلة في حياتنا فأبعدنا عن ربنا؟ إن أهل الليل هم الذين ينادون الله بكلامه، ويخاطبون الله بقرآنه، وبالتدبر والترتيل. وربما ضعف الحفظ عند الناس عن قيام الليل، يقول قائلهم: لو أني قمت الليل يا ترى ماذا سوف أقرأ؟ ولا حفظ لي. يمكن أن تقرأ من المصحف ويمكن أن تصلي من الليل القليل، وربك لأنه عظيم يرضى منك بالقليل.

كان السلف يقولون: لا يقوم الليل منافق، قاله قتادة بن دعامة السدوسي، لا يقوى على قيام الليل منافق. وكان محمد بن سيرين رحمه الله يقول: لا بد من قيام ليل ولو بمقدار حلب شاة. ومن قام الليل وعجز عن الصلاة فليذكر، يعني من استطاع أن يذكر الله في تلك الساعة فليفعل بالذكر والدعاء والتمجيد والسؤال. وأجل ما في الليل ليس قيامه وصلاته وقراءته وذكره، أجل ما في الليل الدعاء والتملق والسؤال، ولسان حالك يقول: لبست ثوب الرجاء والناس قد رقدوا، تناجي ربك وتسائل مولاك وتطلب سيدك وتتملقه وتطلب أن يعفو عنك وأن يعتقك. والله قيام الليل حصن عظيم من الحصون التي ضيعناها، ولما ضيعت الأمة قيام الليل والمناجاة ولذة السؤال ضاع كل شيء في أمتنا، ما من مجاهد رفع راية الجهاد في يوم من الأيام إلا وكان من أهل الليل، فهم رهبان بالليل وحقيقة فرسان بالنهار، ما من مجاهد إلا وهو من أهل الليل، وما من عالم إلا وهو من أهل الليل.

أيها الأحبة، إنها دعوة بمناسبة العشر الأواخر أن نشد المئزر وأن نوقظ الأهل وأن نجتهد ما لا نجتهد في غيره، وأن ننصب الأرجل، وأن نقوم لله تعالى مصلين راجين باكين متملقين خائفين وجلين، ولربنا محبين. أسأل الله تعالى أن يتقبل منا جميعًا، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضى، وأن يأخذ بنواصينا إلى البر والتقوى، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن والاه. أهل الليل أكثر الناس صدقًا في المعاملة، إنهم لما قاموا خائفين وكان إيمانهم إلى درجة مفارقة الفراش وهو طيب ومباح، طالما أنهم قاموا إذا باعوا باعوا بصدق، وإذا اشتروا اشتروا بورع، وإذا تعاملوا تعاملوا بتقوى، وإذا تكلموا تكلموا بصدق. الليل من العبادات العظيمة، يكفي فيه قوله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم». لا يمكن أن تجد شخصًا يقوم الليل ويكذب بالنهار، لا يمكن، وإلا لما استطاع أن يوفق إلى قيام الليل. والمحروم من لذة مناجاة الله تعالى، والله الذي لا يقوم ويسأل ربه ولا ينادي مولاه ويحس بقربه ويشعر بحبه ويتودد إليه ويتأمل أسماءه وصفاته، معاني القهر والربوبية والعلو والعز والمنع والعطاء والجود والكرم والرزق والبسط والقبض، كل هذه المعاني يخصها، والله محروم ولو نام حرم نفسه.

يا إخوان، كيف نقوم الليل؟ ما هي المعينات على قيام الليل؟ نحن أخلدنا إلى الأرض، حياتنا اليومية أسست على غير قيام الليل، يعني البرنامج اليومي لكل موظف ولكل عامل لا يمكن أن يقوم الليل، لماذا؟ لأنه يخرج صباحًا باكرًا، لا قيلولة، مع المعاصي والذنوب التي في الشوارع والطرقات وفي المكاتب وفي أماكن العمل مع النساء، مع هذه الزحمة يرجع متعبًا، لو أنه صلى العشاء يتمنى متى يرجع إلى فراشه، هذا إذا كان من أهل الخير يرجع بعد العشاء يجرجر أذياله، متعب الجسد منهك التفكير، هل تظنون أن مثل هذا يقوم إلا من أقامه الله؟ هي من العبادات التي تحتاج إلى تجرد كبير وإلى تعظيم لله، أصلًا على قدر تعظيمك لله أنت تقوم الليل. أسس حياتك على الدين، أول شيء صل الفجر في المسجد وسوف تعان على قيام الليل، ابدأ حياتك بصلاة الفجر، واتخذ قيلولة، ولا تساهر بعد العشاء أبدًا ولا تجامل أحدًا بعد العشاء.

قال سفيان الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بسبب ذنب أصبته. وجاء رجل إلى الحسن البصري قال: إني أنوي قيام الليل، أقدم الركوة وأضع الإبريق ولا أستطيع أن أقوم، قال: قيدتك ذنوبك. وقال سميط بن عجلان رحمه الله تعالى: العين كالطفل، إن عودتها السهر اعتادت وإن عودتها النوم اعتادت. أنت إن أردت أن تقوم الأيام الأولى سوف تعاني، سوف تتعب تعبًا شديدًا، وتشعر أنك بالنهار نعسان تعبان، لكن ما هي أيام إلا ويصبح قيام الليل عندك كما هو عند الصالحين كشرب الماء.

وعمرو بن الأسود السكوني من كبار التابعين، شهد له عمر بن الخطاب رضي الله عنهم شهادة والله أفضل من جميع شهادات الدنيا، قال: من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله فلينظر إلى هدي عمرو بن الأسود السكوني. وأبو هريرة رضي الله عنه كان في البيت ومعه خادم ومعه زوجه، يقسمون الليل إلى ثلاثة أقسام،

يقوم الخادم الثلث الأول ويوقظ أبا هريرة وينام، ويقوم أبو هريرة الثلث الثاني ثم يوقظ زوجه ويرقد وتقوم هي الثلث الأخير.

أيها الأحبة، هذا قيام الليل وهذه آثاره ونصوصه وأدلته، وهذه قصصه وروائعه، هذا قيام الليل، لم يبق بعد هذا إلا أن تحيا القلوب الميتة وأن تستيقظ أفئدة الغافلة، ولم يبق بعد هذا إلا سؤال الله واللجوء إليه سبحانه وتعالى. اللهم أعنا ولا تعن علينا، ووفقنا للهدى والرشاد. اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى يا رب العالمين. اللهم تقبل منا يا رب العالمين، اللهم تقبل منا يا رب العالمين، إنك على كل شيء قدير.

للاستماع إلى المادة وتنزيلها

mohamedsayed.com/sounds/رهبان-الليل/

تابع الحسابات الرسمية للشيخ

فيسبوك	يوتيوب	تيليجرام	قناة واتساب	إكس
MohammedSayedHaj	@msayedhaj	@msahaj	قناة الشيخ	@mohamedsayed_sd

الموقع الرسمي للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله · mohamedsayed.com